

المدرسة المالكية المغربية الأولى - أعلامها، عوامل نشأتها، خصائصها -

د. سمير بشير باشا

الملخص:

يبرز هذا البحث جهود أئمتنا الأوائل من المغاربة الذين رحلوا إلى الإمام مالك، وأخذوا عنه العلم والأدب، ثم رجعوا متأثرين بمنهجه في التعليم والتربية، ناشرين مذهبه وفقهه تدرسا وتأليفا وقضاء، فظهرت بذلك النواة الأولى للمدرسة المالكية المغربية .

وانطلاقا من تراجم أعلام هذه المدرسة توضحت عوامل نشأتها وظهر تنوع خصائصها، لتمييز عن بقية المدارس المالكية، فقد جمعت المدرسة المالكية المغربية بين خصائص المدارس المالكية الأخرى، كالاعتماد على الأثر والتعويل على عمل أهل المدينة (خاصية تميزت بها المدرسة المدنية والمصرية)، والاهتمام بالنظر (خاصية تميزت بها المدرسة العراقية)، لتبرز ثمرة جهود علماء المغاربة الأوائل في الخدمات العلمية الجليلة التي قدمها إمام المالكية في المغرب الإسلامي وهو الفقيه المجتهد سحنون بن سعيد بمنحاه الجامع بين الاتجاهين .

Abstract:

This research shows the early imams efforts of Moroccans who left to Imam Malik , and they took him science and ethics ,and returned impressed to his way in teaching and education ,which showed that the nucleus of the school Moroccan Maalikis ,judging from the history of this imams made clear its inception factors and the back of the diversity of characteristics ,for distinct from the rest of the Maalikis schools ,rely on the amel ahl el medina and el athar (the medina and Egyptian school) ,and attention to the opinion (the Iraqi school) ,to bring the fruit of efforts of scientists Moroccans early in the venerable scientific services provided by the imam Maalikis in the Islamic Maghreb , which Sahnoun bin Saeed combined between both directions.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الآية 102 من سورة آل عمران] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا وَخُلُقُوا نِسَاءَكُمْ إِنَّ اللَّهََ الْإِلَهَ الَّذِي تَسْتَعِينُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهََ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [الآية 1 من سورة النساء] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهََ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهََ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الآيتان 70-71 من سورة الأحزاب] .

أما بعد، فيقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [الآية 122 من سورة التوبة] .

وقد عمل أسلافنا بهذه الآية وجابوا البلدان في طلب العلم وتحصيله، ومن أبرز هذه الرحلات ما قام به المغاربة من الوفادة على الإمام مالك إمام المدينة النبوية دار الهجرة، رغبة في التفقه في الدين ونشر العلم في بلادهم، وظهر تأثر الوافدين المغاربة بالإمام مالك فرغبوا في الأخذ عنه ورغبوا أقوامهم في الرحلة إليه، فكثرت تلاميذه وتكررت رحلاتهم إليه، وبذلك تكونت النواة الأولى للمدرسة المالكية المغربية، فأحببت المشاركة في إبراز معالمها ضمن هذا البحث وأثرت أن يكون عنوانه:

((المدرسة المالكية المغربية الأولى: - أعلامها، عوامل نشأتها، خصائصها-))

وقد تقرر في مناهج البحث العلمي الانطلاق من إشكالية ليتم التوصل إلى أجوبة علمية عليها، وهذا ما تضمنه العنصر الآتي:

الإشكالية المطروحة:

لما تقرر في أصول البحث في تاريخ المدارس العلمية أنه لكل مدرسة خصائصها من حيث المنهج والأصول، كان الانطلاق من سؤال كمحور لإشكال علمي حول خصائص المدرسة

المالكية المغربية الأولى، وماهية المسلك العلمي المناسب في هذا النوع من البحوث للحصول على إجابة دقيقة .

يظهر للباحث أن الانطلاق من دراسة تراجم أعلام هذه المدرسة، ولو بإيجاز غير مخل قد يفيد في الإجابة على هذا الإشكال العلمي .

أهمية الموضوع:

- 1- مكانة الإمام مالك ومنزلته العلمية، وما يحظى به مذهبه من الاهتمام العلمي العالمي على مستويات علمية عالية .
- 2- كثرة المدارس المالكية وتنوعها على غرار المدرسة المغربية، كالمدرسة المدنية والمدرسة العراقية والمدرسة المصرية والمدرسة الأندلسية .
- 3- المدرسة المالكية المغربية من أهم المدارس المالكية التي استمر بقاؤها إلى عصرنا الحاضر .
- 4- أهمية معرفة جهود أئمة المدرسة المالكية المغربية الأوائل للسير على منوالها .

أسباب اختياره:

- 1- الإسهام في دراسة التراث العلمي المغربي .
- 2- محاولة استكشاف أهم الأصول المنهجية والأسس العلمية التي قامت عليها المدرسة المالكية المغربية الأولى .
- 3- التعرف على الرعيل الأول من العلماء المغاربة الذين أفنوا حياتهم في العلم تعلمًا وتعليمًا .
- 4- الأهمية الكبرى لهذا الموضوع .

أهداف البحث:

- 1- إظهار أصل نشأة المدرسة المالكية المغربية وإبراز عوامل ظهورها .
- 2- بيان خصائص المدرسة المالكية المغربية الأولى وتنوع هذه الخصائص .
- 3- استنتاج أهم أسباب بقاء هذه المدرسة حتى عصرنا الحاضر .
- 4- ربط الأجيال اللاحقة بالجيل الأول من العلماء المغاربة .

الجديد في البحث:

- 1- تخصيص الدراسة بالنواة الأولى للمدرسة المالكية المغربية .
- 2- الانطلاق من تراجم أعلام المدرسة المالكية المغربية الأولى للوصول إلى عوامل ظهورها وخصائصها .

منهج البحث:

اتبعت فيه الخطوات الآتية:

- 1- الانطلاق من تراجم أعلام المدرسة المالكية المغربية الأولى، للوصول إلى إجابة علمية دقيقة على الإشكال المطروح حول خصائص هذه المدرسة .
- 2- الاعتماد في تراجم أعلام المدرسة المالكية المغربية الأولى على كتب الطبقات المتخصصة والتراجم والتاريخ .
- 3- منهج الترجمة فيه ذكر اسم العلم وكنيته واسم أبيه ونسبته، ثم أخذه عن الإمام مالك وغيره من الشيوخ، ثم تلاميذه وأعماله العلمية ومناقبه وتاريخ وفاته إن وجد، ثم أحيل إلى كتب المتخصصة في التراجم للزيادة في الاطلاع والبحث، وقد أقتصر على بعض هذه العناصر بحسب توفر المعلومات وطلبها للاختصار .
- 4- قسمت الأعلام إلى طبقتين من حيث تقدم الوفاة والسبق في الأخذ عن الإمام مالك .
- 5- تحليل تراجم أعلام المدرسة المالكية المغربية الأولى والتوصل إلى عوامل ظهورها وخصائصها.

المبحث الأول: نشأة المدرسة المالكية المغربية وأعلامها

وفيه مطلبان: الأول في نشأة المدرسة المالكية المغربية، والمطلب الثاني في أعلام المدرسة المغربية الأولى .

المطلب الأول: نشأة المدرسة المالكية المغربية

ويمكن الكلام على طور نشأة المدرسة المالكية المغربية في مرحلتين: مرحلة الرحلة والتلمذ، ومرحلة نشر العلم وبثه ضمن هذين الفرعين:

الفرع الأول: مرحلة الرحلة والتلمذ

لقد انتشر فقه الإمام مالك في بلاد المغرب الإسلامي، بواسطة تلاميذه الوافدين إليه من هذه البلاد، ضمن رحلاتهم لتحصيل العلم والتفقه في الدين، وهؤلاء الوافدون مثلوا النواة الأولى للمدرسة المالكية المغربية، وكان يزيد عددهم على ثلاثين رجلاً¹، من بينهم: عبد الله بن فروخ الفارسي، وعلي بن زياد العبسي، والهللول بن راشد، وعبد الرحيم بن أشرس، وأبو علي شقران بن علي القيرواني، وعبد الله بن غانم، وعباس بن الوليد، وأبو خارجة عنبسة بن خارجة، وأبو محمد عبد الله بن حسان اليحصبي، وصقلاب بن زياد الهمداني، وأبو عون معاوية بن الفضل الصمادحي وأبو عثمان المعافري، وزيد بن محمد الجمحي، وأسد بن الفرات، وأبو الخطاب الكندي، وعمر بن سمك، وأبو طالب الأبخاري، وأبو الحجاج الأزدي، والحارث بن أسد القفصي، وعلي بن يونس الليثي وغيرهم².

وكان أشد هؤلاء تأثيراً علي بن زياد العبسي التونسي، حيث دخل الحجاز والعراق في طلب العلم، واستطاع أن يستكشف أصول الإمام مالك، لتكون أصل تنظيره ومنطلق تفريعه³.

الفرع الثاني: مرحلة نشر العلم وبثه

وهذا بداية من علي بن زياد التونسي الذي نشر فقه الإمام مالك وعلمه بين الناس، وحرص على إيصال ما أخذه عنه إلى كل أهل بلده، مع تفان كبير وجهد منقطع النظير، وهو أول من أدخل مذهب الإمام مالك إلى المغرب وفسره وشرحه وله كتاب خير من زنته .

وممن نشر مذهب الإمام مالك على طريقته في الورع وتعظيم الدين ومحبة النبي ﷺ وسنته الهللول بن راشد، وعبد الرحيم بن أشرس، وعبد الله بن غانم وغيرهم .

وكان من بين الوافدين: أسد بن الفرات الذي كان له الأثر الكبير في تدوين فقه هذه المدرسة من خلال كتابه المعروف بالأسدية نسبة إليه .

وهؤلاء وغيرهم ممن سبق الإشارة إليهم ومن سيأتي ترجمتهم في الأعلام كلهم تلمذوا على الإمام مالك، وأخذوا عنه مباشرة، فلما رجعوا إلى بلادهم أخذوا ينشرون فقهه وعلمه بالتدريس والفتيا والقضاء والتأليف، كما ظهر تأثير هؤلاء التلاميذ بأخلاق الإمام مالك وكريم

خصاله وورعه وتعظيمه للنبي ﷺ وسنته، وصاروا يحدثون بذلك العامة والخاصة، فرغب الناس في الرحلة إلى الإمام مالك لأخذ العلم والأدب عن عالم المدينة وإمامها .

وسحنون بن سعيد وإن لم يكن من الآخذين عن الإمام مالك إلا أنه استطاع هو الآخر أن يربط تلك الفروع بأصولها في مدونته، نتيجة إحاطته بأصول إمام المذهب، تلك الإحاطة التي ورثها عن شيخه علي بن زياد، ونماها وصقلها على شيخه الآخر ابن القاسم، مع أخذ عن كبار تلاميذ الإمام مالك وجلتهم⁴ .

وبعد هذه التوطئة سيكون البحث في تراجم أعلام المدرسة المالكية المغربية الأولى، ابتداء من أقدم تلاميذ الإمام مالك الذين وفدوا إليه من المغرب وهو أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي إلى أبي سعيد عبد السلام بن سعيد الملقب بـ سحنون، عالم إفريقية في زمانه من غير منازع، للوصول إلى عوامل ظهورها ثم استخلاص خصائصها.

المطلب الثاني: أعلام المدرسة المالكية المغربية الأولى

يمكن التمييز بين طبقتين منهم، وهذا من حيث تقدم الوفاة والسبق في الأخذ عن الإمام مالك، الأولى ابتداء من عبد الله بن فروخ إلى أبي الوليد عباس بن الوليد الفارسي وهو موضوع الفرع الأول، والطبقة الثانية ابتداء من محمد بن الحكم اللخمي إلى آخر التراجم وهو موضوع الفرع الثاني .

الفرع الأول: الطبقة الأولى من أعلام المدرسة المالكية المغربية

1- أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي: فقيه القيروان في وقته، وكان اعتماده في الحديث والفقه على الإمام مالك بن أنس وبصحبه اشتهر وبه تفقه وسماه بـ فقيه المغرب، وكان يكتب مالك بن أنس في المسائل ويجاوبه مالك، لكنه كان يميل إلى النظر والاستدلال فربما مال إلى قول أهل العراق فيما تبين له منه الصواب، لأنه أخذ عن أبي حنيفة، ولما انصرف إلى القيروان جعل يعلم الناس ويحدثهم فانتفع به خلق كثير، توفي: 175 هـ⁵ .

2- علي بن زياد الحمصي: قال سحنون: قدم علينا رجل ونحن صغار، يقال له: علي بن زياد الحمصي، سمع منه الجهول كتاب (الزهد)، قال: فكنا نسمعه من الجهول⁶

- 3- أبو مسعود عبد الرحيم بن أشرس: قيل اسمه: العباس، وقيل: عبد الرحمن، أنصاري من العرب، ثقة فاضل، سمع من الإمام مالك، وروى عنه ابن القاسم وابن وهب، وكان أحفظ للرواية شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توفي سنة 176 هـ⁷.
- 4- أبو الحسن علي بن زياد التونسي العبسي: سمع مالكا والثوري وغيره، وسمع منه بهلول بن راشد وسحنون وغيرهم، كان أول من كتب مسائل الفقه والفتاوى التي تكلم بها الإمام مالك، وخرجها كتباً كتباً على مواضع الأحكام الفقهية، وسماه: "كتاب خير من زنته"، جمع في دراسته بين مدرسة المدينة والعراق، توفي سنة: 183 هـ⁸.
- 5- أبو عمر بهلول بن راشد القيرواني: سمع من مالك وعلي بن زياد والثوري وغيرهم، وسمع منه سحنون وعون بن يوسف وغيرهما، مجتهد ورع مستجاب الدعوة عنده علم كثير، ودون الناس عنه جامعاً، توفي سنة: 183 هـ⁹.
- 6- أبو علي شقران بن علي القيرواني: كان رجلاً صالحاً مستجاب الدعوة، من أهل الفضل والدين والاجتهاد، وكان مؤاخياً لبهلول بن راشد، عالماً بالفرائض، وله فيها كتاب، وهو ثقة مأمون، روى عنه سحنون بن سعيد، وعون بن يوسف الخزاعي، مات سنة: 186 هـ¹⁰.
- 7- أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن غانم: كان ثبناً ثقة فقيهاً، وولي القضاء وكان عدلاً فيه، وله سماع من الإمام مالك مدون انقطع، ومنه في المجموعة مسائل، وسمع الموطأ، توفي سنة: 190 هـ¹¹.
- 8- صقلاب بن زياد الهمداني: سمع من الإمام مالك بن أنس ومن غيره، كان من أهل الفضل والعبادة والاجتهاد، وهو من طبقة بهلول بن راشد، ثقة مأمون، سمع منه أبو سنان زيد بن سنان وغيره، مات سنة 193 هـ¹².
- 9- أبو عون معاوية بن الفضل الصمادحي: روى عن مالك، وحنظلة بن أبي سفيان، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وسفيان الثوري، كان معدوداً من شيوخ أهل إفريقية، روى عنه: ابنه موسى، وأبو داود العطار، ووالد أبي داود، وكان ثقة، وكان قليل الحديث، وروى عنه سحنون، توفي سنة: 199 هـ¹³.

10- أبو زكريا يحيى بن سلام البصري: قدم إفريقية، وكان ثقة ثبتاً، لقي غير واحد من التابعين، وأخذ عن الإمام مالك، وله مصنفات كثيرة في فنون العلم، وكان من الحفاظ المحدثين، مات بمصر سنة: 200 هـ¹⁴.

11- الحارث بن أسد القفصي: صاحب الإمام مالك، كان ثقة خياراً مستجاباً، روى عنه الهلول بن راشد، مات سنة: 208 هـ¹⁵.

12- يزيد بن محمد الجمحي: ثقة قديم السن كثير الحديث، لقي مالك بن أنس وإبراهيم بن محمد من أهل المدينة وغيرهما، وسمع من أبي بكر بن عياش، سمع منه موسى بن معاوية الصمادحي، وأكثر أحمد بن يزيد السماع منه، مات غازياً سنة 212 هـ¹⁶.

13- أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان: أخذ عن علي بن زياد، وبه تفقه قبل رحلته إلى المشرق، وسمع من مالك الموطأ وغيره، وألف كتاب الأُسدية، وتولى قضاء القيروان، توفي في غزوة صقلية أميراً على الجيش وقاضياً، سنة: 213 هـ¹⁷.

14- أبو الوليد عباس بن الوليد الفارسي: من أهل تونس، كان ثقة مأموناً محدثاً حافظاً للحديث، أخذ عن مالك والثوري وحماد بن زيد والفضيل بن عياض، توفي بمدينة تونس سنة: 218 هـ¹⁸.

الفرع الثاني: الطبقة الثانية من أعلام المدرسة المالكية المغربية .

15- محمد بن الحكم اللخمي: ثقة مأمون، رجل صالح، له سماع من عبد الرحمن بن زياد بن أنعم والثوري ومن مالك وابن لهيعة وحيوة بن شريح وغيرهم، وسمع منه معاوية الصمادحي، توفي سنة: 206 هـ¹⁹.

16- أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي: الإمام الثقة الأمين الفقيه المحدث الصالح المجاب الدعوة، له سماع من مالك بن أنس والثوري وغيرهما، كان شيخاً عالماً باختلاف العلماء، وأكثر اعتماده على مالك، متفنناً في العلوم من الحديث والفقه والعربية وغير ذلك، سمع منه نظراؤه بإفريقية، الهلول بن راشد وغيره، وكان سحنون يجله وله كرامات، توفي سنة: 220 هـ²⁰.

17- أبو محمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي: واسمه يزيد بن عبد الرحمن، وهو ثقة في حديثه، قد أكثر عن عبد الرحمن بن زياد، ورحل إلى مالك وسمع منه فكان عنده مكرما، وروى عنه سحنون بن سعيد ومحمد بن وضاح، كان غاية في الفقه بمذهب الإمام مالك، حسن البيان عالما بأيام العرب وأنسابها، راوية للشعر قائلا له مفوها قويا على المناظرة، متبعا لمذهب الإمام مالك ذابا عنه، على طريقة الإمام مالك في محبة النبي ﷺ، جوادا كريما، مات سنة 227 هـ²¹.

18- أبو عثمان حاتم بن عثمان المعافري: ويعرف بالأبزازي فيما ذكره بعضهم، ممن روى عن مالك، له سماع من ابن أنعم ومن مالك، ورحل إليه مع ابن غانم، روى عنه داود بن يحيى الصدي وغيره، وكان أبو عثمان رسول ابن غانم إلى مالك في مسأله، وكان من الأتقياء²².

19- أبو الخطاب محمد بن عبد الأعلى الكندي: من مشائخ إفريقية، وروى عنه سفيان الثوري، وهو ثقة في علمه وما حمل، سمع منه أبو داود العطار وغيره²³.

20- أبو طالب عبد الله بن عثمان الأبزازي: كان رجلا صالحا ثقة، سمع من الإمام مالك ومن ابن فروخ، روى عنه داود بن يحيى وغيره²⁴.

22- أبو الهيثم خالد بن يزيد الفارسي اللؤلؤي: سمع من الإمام مالك شيئا يسيرا ومن الهلول بن راشد ومن علي بن زياد، حدث عنه ابنه محمد وفرات بن محمد، وكان ثقة²⁵.

23- عبد الله بن أبي غسان: سمع من مالك، وسمع منه فرات بن محمد، وكان ثقة²⁶.

24- الأقرع بن بكار النصيري: كان قد لقي مالك بن أنس وسمع منه، من موالى موسى بن نصير، حدث عنه فرات بن محمد²⁷.

25- أبو المسلم عبد الرحمن بن الجهم الخولاني: سمع من عبد الرحمن بن زياد ومن مالك بن أنس، سمع منه فرات بن محمد²⁸.

26- أبو عبد الله زرارة بن عبد الله: روى عن مالك وابن فروخ والليث بن سعد وغيرهم، وهو ثقة، توفي سنة: 238 هـ²⁹.

- 27- أبو محمد عبد العزيز بن يحيى المدني الهاشمي: من القادمين إلى المغرب، قدم سنة خمس وعشرين ومائتين، وخرج أول سنة ست وعشرين، سمع من مالك موطأه وغيره، وسمع من الليث ابن سعد وابن الدراوردي ومن جماعة من محدثي أهل المدينة، وكتبه إنما أملاها من حفظه، سمع منه محمد بن سحنون وبشر كثير³⁰.
- 28- عمر بن سمك بن حميد: مولى موسى بن نصير، روى عن مالك، وكان من أصحاب الهلول بن راشد، يروي عن أبيه، روى عنه أبو المهاجر عيسى بن محمد³¹.
- 29- علي بن يونس الليثي: سمع من مالك وابن عينة ومن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وكان ثقة³².
- 30- أبو يحيى زكريا بن محمد بن الحكم اللخمي: كان ثقة رجلا صالحا، سمع من مالك وحيوة بن شريح وغيرهما، وكان يستفتي بالقيروان مع أسد وأبي محرز وطبقته³³.
- 31- أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي: الملقب بـ "سحنون"، عالم إفريقية في زمانه من غير منازع، وهو صاحب: "المدونة" المشهورة التي تعتبر من أمهات كتب المذهب وأقدمها على الإطلاق، أخذ عن كبار تلاميذ الإمام مالك، ولم يكتف بمن كان في القيروان منهم، بل رحل إلى مصر ليأخذ ممن أخذ عن الإمام مالك من المصريين، كابن القاسم وغيره، توفي سنة: 240 هـ³⁴.

المبحث الثاني: عوامل ظهور المدرسة المالكية المغربية وخصائصها

وفيه مطلبان: الأول في عوامل ظهور المدرسة المالكية المغربية، والمطلب الثاني في خصائصها.

المطلب الأول: عوامل ظهور المدرسة المالكية المغربية

وترجع إلى ثلاثة عوامل: الأول منها منزلة الإمام مالك ومنهجيته العلمية، والثاني تبني الدولة للمذهب المالكي، والثالث كثرة الوافدين إلى الإمام مالك واعتناؤهم بالتدريس والتأليف، وسأخصص لكل عامل فرعا.

الفرع الأول: منزلة الإمام مالك ومنهجيته العلمية

حيث كان إمام الأئمة في زمانه، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، ومما زاد من تأثر الناس به ورعه وتعظيمه للنبي ﷺ، وكان يحظى بمنزلة رفيعة عند الخلفاء مما ساعد على انتشار مذهبه، وكان له مجلسان واحد في الحديث وآخر للفتوى، فأما مجلس الحديث فكان مجلسا مهيبا، يستعد له الإمام تعظيما لحديث النبي ﷺ، فجمع بين الحديث والفقه، كما عرف عنه ترك الاستطراد في المسائل الافتراضية، واشتهر بورعه في الفتوى³⁵.

وقد ظهرت معالم هذا التأثير في سير هؤلاء التلاميذ، فنجد في تراجمهم السابقة أنهم عرفوا بالزهد والورع والثقة في الحديث والأمانة والتقوى والديانة، وكان منهم أصحاب كرامات ومنهم من كان مستجاب الدعوة، ولاشك أن هذه الأخلاق من أسباب قبول العامة لهذا الفقه وتمكنه من قلوبهم، إذ إن التأثير بجميل الخصال قد يكون أقوى من التأثير بحسن المقال.

الفرع الثاني: تبني الدولة للمذهب المالكي

وهذا بتعظيمها لشأنه، وفرض القضاء به والفتيا عليه، وفسح المجال لأئمة المالكية في الإفتاء والتدريس، حتى صاروا أصحاب الخطوة عند القادة والأمراء، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار التفرع والتأصيل العلميين، وقد ظهر هذا واضحا في تراجمهم السابقة، حيث نجد منهم القضاة الذين عينهم الأمراء كعبد الله بن غانم وأسد بن الفرات، والمفتين الذين تولوا التدريس والتعليم، وكانت من أنبل مهامهم وأشرف أعمالهم³⁶.

الفرع الثالث: كثرة الوافدين إلى الإمام مالك من بلاد المغرب واعتناؤهم بالتدريس والتأليف .

حيث رحل إليه المتعلمون من المغرب، ونشروا فقهه وعلمه، وتكررت رحلات كثير منهم، وعرف بعض تلاميذه بمراسلاتهم للإمام، ومكاتبتهم له وأجوبته لهم، وقد تميز أئمة المغاربة بذلك وعرفوا به، وهذا واضح في الكلام على تراجم عدد كبير منهم كما سبق³⁷.

وقد اعتنى أئمة المالكية المغاربة بالتدريس والتأليف اعتناء كبيرا وعرفوا بذلك، فقد كانت تعقد المجالس العلمية والدروس الشرعية، وظهرت كثير من المؤلفات والمصنفات في وقت مبكر، ككتاب خير من زنته لعلي بن زياد، ومصنفات يحيى بن سلام، والجامع المدون عن

الهلول بن راشد، والأسدية لأسد بن الفرات، والمدونة السحنونية، وغيرها كما هو ظاهر بوضوح في تراجمهم السابقة .

المطلب الثاني: خصائص المدرسة المالكية المغربية الأولى

جمعت المدرسة المالكية المغربية الأولى بين الاتجاه الذي كانت تسير عليه مدرسة أهل الحديث بالمدينة، والاتجاه الذي كانت تسير عليه مدرسة الرأي بالعراق، وذلك بتظافر جهود أئمتها الذين درسوا على فقهاء العراق زيادة على تتلمذهم على الإمام مالك أو الذين اختصوا بالأخذ عن الإمام مالك وكذلك أخذوا عن كبار تلاميذه المتأثرين بمنحى العراقيين، ثم جاء سحنون الذي درس على جل أعلام هذه المدرسة باتجاهيها وأضاف إليها تتلمذه على جلة أعلام المدرسة المصرية لينحو بالمدرسة المغربية اتجاها متميزا، وهذا ما سيتوضح في هذه الفروع .

الفرع الأول: التأثير بمنحى أهل الحديث .

فأما التأثير بمنحى أهل الحديث فكان واضحا في أعلام هذه المدرسة، سواء تعلق الأمر بالجانب الأثري أو بجانب عمل أهل المدينة، فقد كان جل علماء هذه المدرسة من المحدثين الحفاظ الثقات المشتغلين بالحديث والآثار، وأخذوا عن الإمام مالك الموطأ أو بعضا منه، وكانوا يرون اعتماد الإمام على عمل أهل المدينة، وظهر تأثير ذلك في أهل المغرب، حتى إنهم لما وصلت إليهم الأسدية أنكروا ما فيها وقالوا لأسد بن الفرات: أجتنا بأخال وأظن وأحسب، وتركنا الآثار وما عليه السلف، فأجابهم أسد: أما علمتم أن قول السلف هو رأي لهم وأثر لمن بعدهم، ولقد كنت أسأل ابن القاسم عن مسألة فيجيبني فيها، فأقول له: هو قول مالك ؟ فيقول: كذا أخال وأرى وربما، وكان ورعاً يكره أن يهجم على الجواب، قال: والناس يتكلمون في هذه المسائل³⁸ ...

الفرع الثاني: التأثير بمنحى أهل العراق

وأما التأثير بمنحى العراقيين، فكان بداية من أبي محمد عبد الله بن فروخ الفارسي الذي تتلمذ على أبي حنيفة، وربما خالف قول الإمام مالك لأنه كان يميل إلى النظر والاستدلال على طريقة العراقيين، وكان اعتماده في الحديث والفقهاء على مالك بن أنس،

وبصحبته اشتهر وبه تفقه، وسماه بفضله المغربي، وكان يكاتب الإمام مالك بن أنس في المسائل ويجاوبه مالك .

وكذلك الحال مع علي بن زياد الذي كان يتبنى الفقه التنظيري الفرضي، وجمع في دراسته بين مدرسة المدينة والعراق .

وأسد بن الفرات أخذ عن علي بن زياد، وبه تفقه قبل رحلته إلى المشرق وأخذه عن الإمام مالك، قال أسد بن الفرات: وكان ابن القاسم وغيره يحملني أن أسأل مالكا، فإذا أجابني قالوا لي قل له فإن كان كذا وكذا، فضاق علي يوما وقال هذه سلسلة بنت سلسلة، إن كان كذا كان كذا، إن أردت فعليك بالعراق³⁹. ثم ذهبه إلى العراق وأخذه عن شيوخها حتى صار عالما بأقوالهم، وكان أسد إذا سرد أقوال العراقيين يقول له المشايخ المدنيون: أوقد القنديل الثاني يا أبا عبد الله، فيسرد أقوال المدنيين⁴⁰، وأثمرت جهوده فرضيات الأسدية .

الفرع الثالث: المنحى الجامع بين الاتجاهين (المنحى السحنوني)

على هذا الحال كان التنوع في المدرسة المالكية المغربية الأولى، حتى جاء شيخ المالكية في زمانه وإمام المغاربة في وقته، الذي أخذ من كبار تلامذة الإمام مالك ممثلين في أعلام المدرسة المالكية المغربية الأولى، حيث درس على كثير منهم كما نجد في تراجمهم السابقة، ولا شك أنه استفاد من الاتجاهين وزاد اهتمامه بما عليه عمل أهل المدينة، خاصة في رحلته إلى مصر ليأخذ من علمائها الذين ورثوا علم الإمام مالك، وعلى رأسهم ابن القاسم الذي كان يعتمد على عمل أهل المدينة، ثم ارتحل سحنون بالأسدية إلى ابن القاسم وقد تفقه في علم الإمام مالك، فكشف ابن القاسم عن هذه الكتب مكاشفة فقيه يفهم، فهذهما معه، ونظر سحنون فيها نظراً آخر فهذهما، وبوبها ودوتها، وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره، وذيل أبوابها بالحديث والآثار، إلا كتباً منها مفرقة، بقيت على أصل اختلاطها في السماع، فهذه هي كتب سحنون المدونة

والمختلطة، وهي أصل المذهب المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة، وإياها اختصر مختصروهم وشرح

شارحوهم، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم⁴¹.

وعلى هذا فإن المدرسة المالكية المغربية سبقت بقية المدارس المالكية، من حيث التنوع في هذه الخصائص واجتماعها فيها، وهذا منذ نشأتها الأولى ابتداء من أبي محمد عبد الله بن فروخ الفارسي المتوفى سنة 175 هـ إلى أبي سعيد عبد السلام بن سعيد المشهور بسحنون المتوفى سنة 240 هـ.

الخاتمة

وفيهما نتائج البحث وتوصيات واقتراحات.

نتائج البحث:

- 1- تأثير الإمام مالك في الوافدين إليه من المغاربة، وتأثرهم بمنهجه في التعليم والتربية، فقد أخذوا عنه العلم والأدب.
- 2- اعتناء أئمة المغاربة بالتدريس والإفتاء والتأليف، وتوليمهم مناصب القضاء والحكم ساعد على ثبات هذه المدرسة واستمرار عطائها.
- 3- رغم وجود منافسة علمية قوية بين المذاهب الفقهية في تلك الفترة، إلا أن مذهب الإمام مالك كان صاحب الحظوة عند أمراء المغرب الإسلامي إفتاء وقضاء.
- 4- تنوع خصائص المدرسة المالكية المغربية الأولى أضفى عليها ذلك التميز عن بقية المدارس المالكية.
- 5- جمعت المدرسة المالكية المغربية بين خصائص المدارس المالكية الأخرى، كالاكتفاء على الأثر (خاصية تميزت بها المدرسة المدنية)، والاهتمام بالنظر (خاصية تميزت بها المدرسة العراقية)، والتعويل على عمل أهل المدينة (خاصية تميزت بها المدرسة المصرية).
- 6- ثمة جهود علماء المغاربة الأوائل ظهرت في الخدمات العلمية الجليلة التي قدمها إمام المالكية في المغرب الإسلامي وهو الفقيه المجتهد سحنون.

اقتراحات وتوصيات:

- 1- الاهتمام بدراسة تراجم الوافدين الأوائل إلى الإمام مالك من المغاربة، واستخلاص النتائج العلمية من هذه الدراسة، سواء كانت تاريخية أو فقهية أو تربوية أو غير ذلك .
 - 2- الاعتناء بالجهود العلمية لأئمة المغاربة الأوائل، وتوجيه الدراسات الأكاديمية إلى هذا الجانب، وانتقاء نماذج متنوعة في ذلك، إما جهودهم في فترة تاريخية محددة، أو جهودهم إمام منهم كعلي بن زياد أو البهلول بن راشد أو أسد بن الفرات أو سحنون، أو جهودهم في التأليف أو الفتوى أو القضاء وغير ذلك .
 - 3- جمع المراسلات العلمية والمكاتبات التي كانت بين الإمام مالك وتلاميذه المغاربة، ودراستها دراسة علمية تحليلية أو نقدية أو مقارنة أو غيرها .
 - 4- ضرورة الاهتمام بتعليم الناشئة الأدب قبل العلم، وملازمة تعلم الأدب مع العلم، كما كان أئمتنا الأوائل، وهذا في جميع المستويات العلمية، وتقدير ذلك في برامج التكوين والتربية والتعليم .
- والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه،
ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

المراجع :

- تاريخ ابن يونس المصري، لأبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدي (المتوفى: 347هـ)، دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى: 1421 هـ .
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: 544هـ)، تحقيق جزء 1: ابن تاويت الطنجي، 1965م، جزء 2، 3، 4: عبد القادر الصحراوي، 1966 - 1970م، جزء 5: محمد بن شريفة، جزء 6، 7، 8: سعيد أحمد أعراب 1981-1983م، مطبعة فضالة المحمدية: المغرب، الطبعة الأولى .
- التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (المتوفى: 658هـ)، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة: لبنان، 1415هـ- 1995م .

- جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، لقاسم علي سعد، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي الطبعة الأولى: 2002م .
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (المتوفى: 799هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت
- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي (المتوفى بعد سنة: 460هـ)، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي: بيروت - لبنان، الطبعة الثانية: 1414هـ - 1994م .
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد مخلوف (المتوفى: 1360هـ)، علق عليه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان الطبعة الأولى: 1424 هـ - 2003 م .
- طبقات علماء إفريقية، ومعه طبقات علماء تونس، لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي (المتوفى: 333 هـ)، دار الكتاب اللبناني: بيروت - لبنان .
- مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، لعمر الجيدي المغربي، مطبعة المعارف الجديدة: الرباط، الطبعة الأولى: 1993م .
- المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، لمحمد المختار محمد المامي، مركز زايد للتراث: العين - الإمارات، الطبعة الأولى: 1422 هـ - 2002 م .
- مقدمة ابن خلدون، لابن خلدون، المطبعة الشرفية .
- الوفيات، لأبي العباس أحمد بن حسن بن الخطيب، الشهير بابن قنفذ القسنطيني (المتوفى: 810هـ)، تحقيق: عادل نويس، دار الآفاق الجديدة: بيروت، الطبعة الرابعة: 1403هـ - 1983م .

الهوامش:

- 1 انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (51/4)
- 2 انظر: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، لعمر الجيدي المغربي (ص15-16) .
- 3 انظر: ترتيب المدارك (80/3)، والمذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، لمحمد المختار محمد المامي (ص95-96).
- 4 انظر: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب (ص15-16)، والمذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته (ص95-96) .
- 5 انظر: طبقات علماء إفريقية، لأبي العرب (ص34)، تاريخ ابن يونس المصري (113/2)، ترتيب المدارك (10/3)، التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار (227/2)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد مخلوف (9/1)، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، لقاسم علي سعد (735/2) .
- 6 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص43) .

- 7 انظر: طبقات علماء تونس لأبي العرب (ص253)، ترتيب المدارك (85/3)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (ص152)، الوفيات، لابن قنفذ القسنطيني (ص140) .
- 8 انظر: طبقات علماء تونس (ص251)، تاريخ ابن يونس(153/1)، ترتيب المدارك (80/3)، الديباج المذهب (ص192)، شجرة النور الزكية (91/1)، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية (850/2) .
- 9 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص52)، ترتيب المدارك (87/3)، الديباج المذهب (ص100)، شجرة النور الزكية (92/1)، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية (356/1)، الوفيات (ص145) .
- 10 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص61)، تاريخ ابن يونس (2 / 102)، شجرة النور الزكية (90/1) .
- 11 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص43)، تاريخ ابن يونس (2/112)، ترتيب المدارك (65/3)، شجرة النور الزكية (92/1)، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية (728/2)، الوفيات (ص144) .
- 12 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص62)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي (230/1)، شجرة النور الزكية (92 / 1) .
- 13 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص80)، رياض النفوس (231/1)، شجرة النور الزكية (103 / 1) .
- 14 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص37-38)، رياض النفوس (1 / 188) .
- 15 انظر: تاريخ ابن يونس (2 / 56)، رياض النفوس (290/1)، ترتيب المدارك (322 / 3)، الديباج المذهب (ص106) .
- 16 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص85)، رياض النفوس (239/1) .
- 17 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص81)، ترتيب المدارك (291/3)، شجرة النور الزكية (93/1)، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية (318/1) .
- 18 انظر: طبقات علماء تونس (ص254)، رياض النفوس (248/1)، شجرة النور الزكية (93/1) .
- 19 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص74)، ترتيب المدارك (3 / 324) .
- 20 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص72)، ترتيب المدارك (3 / 317)، شجرة النور الزكية (93 / 1) .
- 21 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص75-76)، ترتيب المدارك (3 / 310-315)، الديباج المذهب (ص133)، شجرة النور الزكية (93/1) .
- 22 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص71)، رياض النفوس (232/1)، ترتيب المدارك (3 / 316) .
- 23 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص87)، رياض النفوس (251/1) .
- 24 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص100)، رياض النفوس (253/1)، ترتيب المدارك (3 / 316) .
- 25 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص76) .
- 26 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص77)، رياض النفوس (240/1) .

- 27 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص 77) .
- 28 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص 77) .
- 29 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص 78)، رياض النفوس (282/1) .
- 30 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص 78)، وشجرة النور الزكية (1 / 86) .
- 31 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص 97)، تاريخ ابن يونس (2 / 157)، رياض النفوس (253/1) .
- 32 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص 79)، رياض النفوس (292/1) .
- 33 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص 86)، رياض النفوس (238/1)، ترتيب المدارك (3 / 324).
- 34 انظر: طبقات علماء إفريقية (ص 101)، تاريخ ابن يونس (2/90)، رياض النفوس (345/1)، ترتيب المدارك (45/4)، الديباج المذهب (ص 160)، شجرة النور الزكية (103/1)، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية (503/1)، الوفيات (ص 174) .
- 35 انظر: ترتيب المدارك (1 / 104-146/2)، فقد ذكر له ترجمة حافلة وتوسع في ذكر مناقبه .
- 36 انظر: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب (ص 36) .
- 37 انظر: مقدمة ابن خلدون (ص 501)، ومباحث في المذهب المالكي بالمغرب (ص 35) .
- 38 انظر: ترتيب المدارك (3 / 298) .
- 39 ترتيب المدارك (3 / 292) .
- 40 ترتيب المدارك (3 / 302) .
- 41 انظر: ترتيب المدارك (3 / 298-299) .